

دور المنطق في هندسة المناهج الكلامية وترشيدها المنهج الجدلي أنموذجا.

Logic task in establishment of theological methods. Dialectic method
as model.

أ/ سامي سنوسي samiphilo@hotmail.com	فلسفة إسلامية	مخبر مشكلات الحضارة والتاريخ / كلية العلوم الإنسانية / الجزائر 2 / الجزائر
DOI:10.46315/1714-010-001-005		

الإرسال: 2001/01/05 القبول: 2000/09/03 النشر: 2021/01/16

ملخص:

إن المنطق هو الألة الكلية للعلوم والمعارف، وبالرغم من تعدد الموضوعات المعرفية لهذه العلوم إلا أنها تأتلف كلها باللغة الإنسانية، وبهذا تشتد الحاجة إلى صناعة المنطق بغرض تحسين اللغة وبناءها بناء سديدا، فعمد الإنسان في سبيل صنائعه المعرفية إلى مناهج شتى، ابتغاء منه لترشيد المفردة والعبارة، ومنها المنهج الجدلي، وهو المنهج الذي ميّز الممارسة الكلامية العقدية الإسلامية أو علم الكلام، وهنا ظفّر المتكلمون بتحلية مقالاتهم الكلامية اللغوية بمقولات منطقية، تم بها الججاج على فائدة المنطق في منهجهم الجدلي، وكملت هذه الحجة ببلوغ الجدول ذروته في المناظرة الحوارية، كتكشف منهجي جلي للمنطق في علم الكلام.
كلمات مفتاحية: المنطق، اللغة، علم الكلام، المنهج الجدلي، المناظرة.

Abstract:

Logic is a new means for science and knowledge. Although the different knowledge, they are unified by humanity language. The aim of Logic is to construct language and develop it. Man has used different methods in order to product knowledge. The dialectic approach has characterized Islamic praxis- speech. So orators have decided to replace their linguistics by postulates which are used in dialectic arguments and that is a new methodological discover in Logic and Islamic science which is called ILM-KALAM.

Keywords : logic, language, elkalām.(Theology).dialectic, Dialogue.

- مقدمة: إنّه كثيراً ما وقفنا على الحكماء الأوّل وهم يكرّرون كلمة قد عهدها كل مُشتغل على العلوم التراثية، وبالتحديد تلك العلوم العقلية، ولاسيما الفلسفة عند اليونان وعلم الكلام عند المسلمين، وقفنا عليهم يفتتحون مصنفاتهم بحكمة: "في الحاجة إلى المنطق"، لكننا - ربما - لم نتأمل هذه الحكمة ببصيرة نافذة إلى المقاصد العميقة التي قصدها الحكماء، كنحو قولنا: إن المنطق آلة العلم التي تعصمه من الوقوع في المغالط والمزلات، أو قولنا: تحتاج كل الصناعات إلى المنطق بحكم قواعده الكلية الشاملة لكل المعارف التي يعرض للإنسان أن يتفتّنها أو يؤلفها، وتنقسم إلى صنائع نظرية، وأخرى عملية، النظرية كالفلسفة والعملية كالطب، ولا مناص للفيلسوف أو الطبيب من العودة إلى المنطق، وهكذا تُحكّم سائر الصناعات كلها.

هو تسويغ منطقي وعام في الآن ذاته، أو إن شئت تعبيراً أفضل، إن ترجيعنا أهمية المنطق وحاجة كل العلوم إليه؛ إلى مجرد إنّه يعصم الذهن من الزلل في هذه الصنائع لهو حُكم صائب، لكنه دليل مشهور يشترك فيه العام والخاص، أي أن التلميذ في المرحلة الثانوية، وأستاذ المنطق في الجامعة يشتركان كلاهما في أن المنطق عاصم للفكر ويفقهان ذلك معا، وهو المُميّز لصحيح الفكر عن فاسده، ألم تسمع العوام في المقاهي والأمكنة العامة وهم يتجادلون، يقولون: هذا كلام غير منطقي وهذا الكلام منطقي؟ ويرفضون دعاوى بعضهم البعض بمجرد أن تكون غير منطقية، كأن يقول زيد لعمرو: أنت متناقض في كلامك. أو أنت صائب ومعك حق، وكلامك صادق وليس بكاذب.

هذه الإشارات نسمعها يوميا عند العوام لكننا نُهمّلها بالرغم من أهميتها التي تكشف لنا عن التسويغ الأمثل الذي قصده الحكماء: "في الحاجة إلى المنطق"، إنه - في تقديري - كلما صنع الإنسان كلاما ونطق وجب عليه أن يتمنطق، والمعنى هاهنا يُجرّ على كل الصناعات والعلوم لأنها في النهاية كلام ومنطوقات مكتوبة ومُدوّنة، فما لم نتأمل فيه كما يلزم هو تلك العلاقة التضائية بين المنطق واللغة، أو حاجة الإنسان في لغته إلى المنطق، رغم أنه قد يعترض البعض قائلاً بشبهة التزام كل ذي لسان بنحوه وقواعد لغته، لكن هيهات، لقد أدرك الحكماء هذه الحجة، ومحصّوها بعمق، وأدركوا أن المنطق هو المقدمة الكبرى لكل الصناعات، وخاصة تلك التي تمارس لغويا حواريا، أو تكتب كتصانيف معرفية.

لما اختص المنطق باللغة الإنسانية بصورة عامة ومفهومية كلية، وليس البتة ماصدقية جزئية، يتبين لنا وبتبصر عميق أن المنطق ضروري في صناعة الكلام وترشيد مناهجه نحو إصابة الحق نظرياً، وتالياً التخلق به عملياً، وليس ذلك إلا لهندسة المناهج الكلامية واللغوية هندسة منطقية صحيحة تفضي بها إلى المقاصد المبتغاة، ولما كان ذلك كذلك، حاولنا من جهتنا الاستدلال على مُسَلِّمة تجلي الهندسة المنطقية في الممارسة اللغوية الكلامية، وقد وقف اختيارنا على المنهج الجدلي بوصفه البارز عند المتكلمين في تعاملاتهم اللغوية، أو هو المنهج المعرفي الذي خصّ صناعة علم الكلام المعروف بطابعه الجدلي، وقد بلغ مرتبته القصوى في فن المناظرة؛ وهنا نطرح الإشكال: كيف نلتمس المنهجية المنطقية في الممارسة اللغوية ؟ بتعبير أفصح: كيف هندسَ المناطقُ للمناهج الكلامية ؟

أولاً: المداخل التأسيسية وبيان المفاهيم المفصلية:

1 - في ماهية المنطق ومدى الحاجة إليه: لقد اختص المتقدمون من الفلاسفة والعلماء واللغويين وغيرهم بدراسة المنطق وتعرّض معارفهم لموازينه، وهذا بحكم عدّه القانون والأورغانون المثالي المميز بين صحيح الفكر وخاطئه، "والمنطق فيما يعطي من قوانين الألفاظ إنما يعطي قوانين تشترك فيها ألفاظ الأمم، ويأخذها من حيث هي مشتركة، ولا ينظر في شيء مما يخص ألفاظ أمة ما، بل يوصي أن يؤخذ ما يحتاج إليه من ذلك عن أهل العلم بذلك اللسان" (جيهامي، ج، 1998، 857).

لهذا اختص المنطق أيما اختصاص بالكلام أو بالمنطوقات في عمومها، وقد هندسه أرسطوطاليس ابتداءً بالمقولات فقال: "كل واحد من التي تقال بغير تأليف أصلاً، فقد يدل إما على "جوهر"، وإما على "كم"، وإما على "كيف"، وإما على "إضافة"، وإما على "أين"، وإما على "متى"، وإما على "موضوع"، وإما على "أن يكون له"، وإما على "يفعل"، وإما على "ينفعل" (أرسطو، 1999، 38).

وبالجملة المنطق عند أرسطو ارتبط باللغة ارتباطاً لزومياً تضافياً، لكن هذا لا يعني أن القوانين المنطقية كالقوانين النحوية، إذ إن هذه الأخيرة تختص بكل لسان على حدة، أما قواعد المنطق فشاملة وعامة، لهذا قيل: "النحو منطق عربي، والمنطق نحو عقلي" (جيهامي، ج، 1998، 857) والمنطق العربي أو النحو هاهنا محايث بالعرب لزوماً جزئياً، أما المنطق كنحو عقلي فيستغرق كل العقول العربية واليونانية وغيرهما، فالمنطق مشتق من الفعل نطق ينطق نطقاً، والنطق ممارسة إنسانية وهي نوعان،

نطق فكري، ونطق لفظي، اللفظي أمر جسماني محسوس، أما الفكري فأمرٌ روحاني معقول. " (جهامي، ج، 1998، 857).

ولما اتضح أن المنطق آلة فكرية تختص بوزن العبارات اللفظية والتصورات الفكرية، فإنه تالياً يتمركز حول جدلية العلاقة بين التصور والمصدق، مع العلم أن التصور عقلي والمصدق واقعي، "فهذه الصناعة. المنطق. لا بد منها في استكمال الإنسان الذي لم يؤيد بخاصية تكفيه الكسب، ونسبة هذه الصناعة إلى الرُّوِيَّة الباطنة التي تسمى النطق الداخلي، كنسبة النحو إلى العبارة الظاهرة، التي تسمى النطق الخارجي، وكنسبة العروض إلى الشعر" (ابن سينا، 20، 1433)، وهنا يبيِّن ابن سينا أن الحاجة إلى المنطق ضرورة لا مناص ومنها، كما بين أنه المُميز بين التصورات والتصديقات اليقينية منها والكاذبة، وقد ذكرت لفظة "منطق" في القرآن الحكيم في قوله تعالى: {عَلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} (سورة النمل الآية 16). والوراثية هنا في الآية تعني معجزة فهم سيدنا سليمان عليه السلام لعلم منطق الطير، و"المنطق كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد، قالت العرب: نطقت الحمامة، وكل صنف من الطير يتفاهم أصواته، والذي علمه سليمان من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض، من معانيه وأغراضه" (الزمخشري، ج، 2009، 778).

لكن الأمر الملفت هنا للتأمل هو ورود كلمة "منطق" وليس كلمة "لسان" على اعتماد إن كلمة اللسان تعني اللغة في عموم المصطلحات القرآنية، ويُصَرَّف هذا المعنى على المنطق وهو ما نبرهن به في الآية اللاحقة بعد تفقد سليمان للطير ومخاطبته للهدد، وفي السورة نفسها، قال تعالى: {قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} (سورة النمل 27) والنظر من طرف النبي هنا يعني التأمل والتصفح (الزمخشري، ج، 2009، 781).

وبكلمة شمَّالة، المنطق هو علم قوانين الأفكار والألفاظ المتضاربة، وبهذا فهو صناعة تبحث في القواعد التي تضمن صحة الانتقال من المقدمات المعلومة إلى النتائج المجهولة (ريشر، ن، 20، 2005)، والحاجة إليه في هندسة الأفكار وتنظيمها، كالحاجة إلى النحو في سبك العبارات وبنائها، وبهذا فقط بان أن المنطق مقدمة لكل العلوم ولاسيما تلك العقلية كالفلسفة، أو اللغوية العقلية كعلم الكلام. والغزالي عدَّ المنطق "معيّاراً للنظر والاعتبار، وميزاناً للبحث والافتكار، وصيقلاً للذهن، ومشحذاً لقوة الفكر والعقل، فيكون بالنسبة إلى أدلة العقول، كالعروض بالنسبة إلى الشعر، والنحو

بالإضافة إلى الإعراب" (الغزالي، 61، 1961) والنحو والعروض علما لغويان، والمنطق علم كلي عقلي يشملهما معا، لذا تشتد إليه الضرورة، ولا تكتمل مدارك النفس المعرفية إلا به، وعليه فهو العلم الذي يحوز على أولوية تقدمه لسائر المعارف كمحرك لها وموجه لمساراتها نحو الأصوب.

2 . المقصود من المناهج الكلامية: إن الناظر المتأمل في مصطلح " المناهج الكلامية" يجده يحمله معنيين؛ أما الأول فهو الطرق والسبل التي يعرض للمتكلم أو الناطق بالكلام أن يتوصل بها لإيصال ما يبتغي من كلمات وعبارات إلى السامع، وقياسا على هذا "فحدُّ الكلام: أنه ما حصل فيه نظام مخصوص من هذه الحروف المعقولة، حصل في حرفين أو حروف، فما اختص بذلك وجب كونه كلاما، وما فارقه لم يجب كونه كلاما، وإن كان من جهة التعارف لا يوصف بذلك، إلا إذا وقع ممن يفيد أو يصح أن يفيد، فلذلك لا يوصف منطق الطير كلاما، وإن كان قد يكون حرفين أو حروفا منظومة" (عبد الجبار، ق، 2012، 6) ، وقد اختارت المعتزلة في حد الكلام شرط المعقولة، أي أن يعقل المتكلم أو الناطق بالحرف أو الحروف المصوتة معانيها العقلية، وهنا نفت أن يكون منطق الطير كلاما معقولا، وعليه نستنتج أن الكلام خص بالكائنات العاقلة فقط التي من جنسها الإنسان.

فالمعنى الأول للمناهج الكلامية هو الآليات اللغوية . بالأساس . التي من خلالها يصنع المتكلم عبارات مفيدة معقولة لدى السامع المتلقي، ولعل أخص تلك المناهج نذكر التأويل والحجاج. فالتأويل عموما هو "إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز، من تسمية الشيء بشببيه، أو بسببه، أو لاحقه أو مقارنه، أو غير ذلك من الأشياء التي عدت في تعريف أصناف الكلام المجازي" (ابن رشد، دت، 32). أما الحجاج فهو القصد في غلبة أحد المتكلمين للآخر، فلا حجاج إلا في مقام التغالب بين الخصمين، والوجه الذي به عند الخصومة (النقاري، ح، 257، 2016).

3 . مفهوم المنهج الجدلي: لقد عرّف المتقدمون في الحضارة الإسلامية الجدل ومنهم الفارابي بقوله: "والجدل هي الصناعة التي بها يحصل للإنسان القوة على أن يعمل من مقدمات مشهورة، قياسا في إبطال وضع موضوعه كلي يتسلمه بالسؤال عن مجيب يتضمن حفظه" (الفارابي، 1986، 13)، وقد عمد ابن النفيس في وريقاته الشارحة للمنطق إلى توضيح مقصد الفارابي فقال: "ويشبه أن يكون مراده بالطريق الصناعة، وهي ملكة نفسانية يقتدر بها على استعمال موضوعات ما نحو غرض من الأغراض

صادرة عن بصيرة بحسب الممكن فيها (...) ويعني "بالمقدمات المشهورة" القضايا التي فرغنا من معرفتها في أول كتاب البرهان وهي التي تعم الاعتراف بها" (ابن النفيس، 2015، 257).

المنهج الجدلي إذن ينطلق صاحبه أو سالكه ابتداء من مقدمات مشهورة التي هي تشتهر بين عُرف الناس ويذيع التسليم بصدقها المُسبق، وبالجملة " الآراء المشهورة ما هو مؤثر ومحمود عند الجميع ومنها ما هو مطّرح ومستنكر عند الجميع، وذلك هو الرأي الشنيع، وهذان يتقابلان في المشهور كتقابل الصادق والكاذب في القضايا العلمية" (النقاري، ح، 476، 2016).

وبهذا نتوصل إلى أن أخص المناهج الكلامية هي تلك التي يلج أصحابها مباشرة إلى الممارسة اللغوية المتضافرة والمتوازنة مع القواعد المنطقية، ويُعدُّ المنهج الجدلي كما اتضح أبرز هذه المناهج بحكم ابتناؤه على الفعالية الكلامية اللفظية من جهة، وتالياً بحكم تعرضه للمقايضة المنطقية أثناء الممارسة بين المتكلمين المتجادلين من جهة أخرى، ويُبرهن على ذلك في مظهر ميز الممارسة الكلامية الإسلامية عن غيرها من الممارسات المعرفية الميتودولوجية الأخرى وهي المناظرة.

والمناظرة هي المباحثة والمباراة في النظر واستحضار كل ما يراه ببصيرته، أو هي إقبال كل واحد على الآخر بالمُحاجة، وهي المفاوضة على سبيل الجدال (قائمي، م وآخ، دت، 326)، فما نلتزمه الآن هو أن المناظرة هي محاوراة عميقة بين شخصين أو بين فرقتين، مع التزام كل طرف بإتباع الحق والصواب، وبمعنى آخر انقياد كل مناظر للحجة الدامغة حتى ولو كانت من إنتاج الخصم المفحّم، وبالتالي فالمناظرة هي ممارسة منهجية تتطلب من المتخاصمين إظهار الحق أو تأجيل الجدال والمخاصمة إلى وقت آخر، ثم أنها توجب مستوى معرفياً من الطرفين لتجعل السامعين شاهدين على قرع الحجة بالحجة والانتصار في الأخير للمفحّم وإتباع دعواه. هذه بالجملة ما أردنا إيراده فيما خص المفاهيم المفصلية كمدخل تأسيسية لغرض بيان دور المنطق في هندسة وتصميم المناهج الكلامية التي أبرزها المنهج الجدلي.

ثانياً: الضوابط المنطقية للممارسة اللغوية/ الكلامية:

لقد عمد المناطق إلى تحديد قواعد عامة لغرض صناعة العبارة السليمة في مقولات كلية، ذكرناها في مقولات أرسطو العشر، لكن لم يغفلوا في الآن ذاته عن تمييز مراتب الممارسات اللغوية، فحددوا بذلك

درجات للكلام، إذ "لما كان الغرض في صناعة المنطق هو البرهان وكان البرهان هو قياس ما احتجنا أن نعلم ما القياس، ولما كان القياس مؤلفا من مقدمتين على الأقل، احتجنا إلى علم المقدمات، ولما كانت المقدمات مركبة من موضوع ومحمول احتجنا إلى علم المحمول والموضوع، التي هي الأسماء والكلم، ولأن الأسماء والكلم هي من الألفاظ التي في الوضع الثاني احتجنا إلى أن نعرف أولا الألفاظ التي في الوضع الأول وهي الألفاظ الدالة على الأمور الموجودة" (أرسطو، 1999، 16، 17).

1- الناظم المنطقي للمفردة اللغوية: لما كانت الممارسة اللغوية تنطلق أولا من المفردة، أفرد المنطق لها هندسة فكرية ضابطة في تشكيلها وتموضعها لتؤدي المعني الأصوب، وتفضي تاليا إلى بناء العبارة بناء صحيحا كذلك، "والألفاظ منها ما يقال بتأليف ومنها بغير تأليف، فالتى تقال بتأليف كقولك: الإنسان يحضر، الثور يغلب، والتي بغير تأليف كقولك: الإنسان، الثور، يحضر، يغلب" (أرسطو، 27، 1999).

المنطق بهذا يشغل أولا على المفردة ودلالاتها على المتكلم والسامع معا، ودلالة اللفظ هي عبارة عن حضور المعنى في الذهن عند سماع اللفظ أو تخيله، وهي إنما تحصل بسبب العلاقة الحاصلة بسبب الوضع، ورسوم هذه العلاقة (العابدي، ف، 2018، 33)، لكن قد تعني الدلالة المطابقة وهو المعروف بالقرينة الحقيقية، وقد لا تعني هذه المطابقة فنُعتت بالقرينة المجازية.

لقد تحددت الغاية التصويبية للمنطق من حيث المفردة التي تؤلف بها العبارة. وهو ما شدّ المنطقة أن يولوا تركيزهم على المفهوم والمصدق، "والمفهوم أن ما استفيد من اللفظ باعتبار إنه فهم منه يسمى مفهوما، وباعتبار إنها قصد منه يسمى معنى، وباعتبار إن اللفظ دال يسمى مدلولاً" (اليزدي، ع، 30، 1433)، وقياسا على هذا تكون المفردة اللغوية مفهوما من جهة الفهم، ومعنى بالنظر إلى القصد، ودلالة إذا بني اللفظ لغرض ذلك. ويتساق المفهوم مع المصدق. و"المصدق كل ما ينطبق ويصدق عليه المفهوم والمصدق قد يكون ذهني كالإنسان والفرس بالنسبة إلى النوع، حيث يصدق على كليهما، وقد يكون في الخارج كزبد وعمر بالنسبة إلى الإنسان" (العابدي، ف، 41، 2018)، هذه بالجملة بعض الإشارات إلى اقتران الضوابط المنطقية للمفردة اللغوية، وما يمكن لحاظه هاهنا هو أن المنطق عبر عن المقولات الإفرادية بصفة استغراقية عامة ولم يستثن لسان قوم عن لسان آخر، كون هذه العملية من شأن النحوي، الذي يعتمد إلى علم اللغة بصورة تحييزية، دارسا نظام المنطوقات أو الملفوظات فيها، مميزا قواعد الألسن عن بعضها البعض، ومن ثمة فعمل النحوي خاص

بلغة ما مقارنة بعمل المنطقي الذي يسعى في عمله إلى بحث الألفاظ والمعاني دونما رجوع إلى قواعد تلك الألفاظ في لسانها الخاص.

2. الناظم المنطقي للعبارة اللغوية: إنه بمقدور الإنسان أن يؤلف من الألفاظ عبارات يؤدي بها معاني يقصدها، وعليه فالجملة أو العبارة هي القضية" والقضية هي قول فيه حكم بنسبة شيء إلى شيء بإيجاب أو سلب" (ابن النفيس، 60، 2015) وبهذا فالعبارة في شكل قضية هي الجمل الموصلة للمعاني إما بالنفي أو بالإثبات.

ثم من العبارة أو القضية يتشكل القياس ويرتبط بالمفردة اقترانا لزوميا، فإذا كانت المفردة والقضية صادقتين دلالة ومعنى، بني القياس بالصدق استلزاما والعكس بالعكس، ولهذا بين الغزالي أن "كيفية تأليف المعاني بالتركيب الخبري المشتغل على الموضوع والمحمول، المسمى قضية، وأحكامها وأقسامها" والمقصد الأقصى للقياس عند المناطق هو تصويب النتائج المتولدة من المقدمات التي هي في الأصل قضايا خبرية إما إيجابا وإما سلبا، والفارابي من جهته بين أن الأقيسة طريق نحو البرهان، يقول: "قصدها أن نحصي الأقاويل التي يلتمس بها المطلوبات في جميع الصنائع الفكرية، وتستعمل بالجملة في إثبات رأي وإبطاله، (...) وهذه الأقاويل هي التي تسمى القياسات وتسمى الدلائل عند القوم" (الفارابي، 11، 1986).

ثالثا: تجلي المنطق في الممارسة الجدلية أو المناظرة الكلامية:

- المعيار المنطقي للحجة الجدلية: لقد تبين فيما سبق أن الغرض من صناعة المنطق هو التمييز بين صحيح الفكر وفاسده، وهذا بطبيعة الحال يبتغي فيه سالكه مراتب الحجج، ومن ثمة لوزنها بعبارة الإقناع من عدمه، فتم إذ ذاك تبويب درجات الحجج الإقناعية والتي أعلاها الحجة البرهانية المساوية لمحض اليقين، وأدناها الحجة السفسطائية الموازية لمحض المغاطة والتمويه المؤرث للشك. إننا وبتأمل الحجة الجدلية والتي "المؤلفة من مقدمات مشهورة، تعتقد الجماهير مضمونها اعتقادا مقاربا لليقين، فلا يشعر الذهن لأول النظر بأن نقيضه ممكن، أو المؤلفة من مقدمات يُسلم بها المُخاطب، ولكن هذه المقدمات لا ترقى في حقيقة حالها إلى مرتبة اليقين التام" (الميداني، ح، 2009، 299).

انطلاقاً من هذه المسلمة بمرتبة الحجة الجدلية يسعنا أن نسجل أن ابن رشد بين في كتاباته الفلسفية وهو يحاور المتكلمين بأن مراتب أقاويلهم جدلية، وقد بين من جهته أن أغلب الخطابات الكلامية الإسلامية قاصرة عن بلوغ مرتبة البرهان أو الإقناع اليقيني، واتضح ذلك كثيراً في كتابه "تهافت التهافت" الذي ناظر فيه الغزالي مباشرة مُحللاً أقاويله المُهتة لأقاويل الفارابي وابن سينا في الحكمة أو الفلسفة، يقول ابن رشد في مطلع كتابه التهافت: "فإن الغرض في هذا القول أن نبين مراتب الأقاويل المثبتة في كتاب التهافت، في التصديق والإقناع، وقصور أكثرها عن مرتبة اليقين والبرهان" (ابن رشد 2، 43، 2003)، وهذه هي عادة ابن رشد في ردوده على الغزالي، إذ نجده في كل مرة يعير الحجة التي عمد إليها الغزالي وهو يبطل مزاعم الفلاسفة، فتارة نجده يعير حجة الغزالي بالجدلية كما في مستهل الكتاب وهو يرد على دعوى الغزالي في وجوب صدور حادث من قديم، فقال: "هذا القول هو قول في أعلى مراتب الجدل، وليس هو أصلاً موصل البراهين، لأن مقدماته هي عامة، والعامة قريبة من المشتركة، ومقدمات البراهين هي الأمور الجوهرية المتناسبة" (ابن رشد 2، 46، 2003) وتارة أخرى نجده يصف حجة الغزالي بالسفسطائية وركاكة الإقناع كقوله: "هذا الفصل كله مغلط سفسطائي" (ابن رشد 2، 2003، 260).

إذن فمرتبة الحجة الجدلية أدنى مرتبة من الحجة البرهانية الجزمية اليقين، وبالنظر إلى علم الكلام الإسلامي المبني على التعدد في الفرق، نستفيد من ذلك أن أقاويل أهله تبنى على المعاندات الكلامية التي تشتهر عند الجمهور وبذلك تصبح شيئاً فشيئاً مشهورات مشتركة يؤمن بها العامة والخاصة، ويصبح من غير اليسير نقضها، حتى وإن عُمد إلى نقضها برهانياً أو تهفيتها، لا يكون ذلك إلا طريقاً نحو خلق معاندة أخرى تظل تتجادل مع الأولى المشهورة وهكذا، وقد لاحظنا ردود الغزالي على الحكماء قضية جدلية ورث ابن رشد الذي جادل بدوره حجج الغزالي ضد الفلاسفة، وولد هذا الحوار بينهما. وهما يبتغيان إصابة اليقين -تيارين، تيار الغزالي وتيار ابن رشد وهما تالياً متجادلين. وما عاد ثمة في الخفاء، بل أوضحت المسألة الغزالية والرشدية من المشهورات العامة التي يتبنى كل مجادل ما يتبنى بشأنها. ومن هنا نستنتج أن الحجة الجدلية عيارها المنطقي مرتبة الإقناع الذي تحدثه في النفوس، ليس ذلك فقط، بل تُعد في منزلة الحجة البرهانية إذا غابت هذه الأخيرة، لأن البديل الجدلي يحل محل البرهاني في حال غياب القطع اليقيني أو البرهاني، وهو ما شهدناه في الحجة الكلامية عند كل فرقة وهي تتجادل عن نفسها إقناعاً لغيرها بدعوايها.

خاتمة:

إنه وبعد هذه المحاولة المتواضعة في سبيل إيراد مواطن المقولات المنطقية، في الممارسة اللغوية، ودور المنطق الهام في صناعة المناهج الكلامية، يسعنا أن نستجمع ما استفدناه من حكمة المنطق وتجليها في اللغة منهجيا، ويكون ذلك في المستخلصات التالية:

- إن الممارسة اللغوية في عمومها عند المناطق، تُهَنْدَسُ بمقولات لا محيد عنها، لهذا أفردوا لذلك مُصَتَفَات تَقَرَّر وتدعو إلى الاسترشاد ابتداء بمنطق المُفردة أو اللفظة ثم العبارة أو الجملة، ليكون ذلك مُقدمة لتشكيل فن الخطاب الكلامي، أو النص تشكيلا سليما من ناحية المفردة والعبارة معا.

- تتطلب المِباراة الكلامية منهجا خاصا بها، وقد مثلنا على ذلك بالمنهج الجدلي، ووجدناه - ونحن نتدارسه - مُستَرشداً بالمقولات المنطقية ومُهَنْدَساً بها، من زاوية المفردة كالاستفادة من المقولات الأرسطية العشر، التي لا ينفكُ عنها أي كلام، وكذلك بآنت الاستفادة من القوانين العِبارية، أي المتعلقة بالعبارة، وقوانينها القياسية، لتتشكل بذلك مقدمات القياس الجدلي، والموصوف بالمقدمات المشهورة. ومن هنا عرفنا أن المنهج الجدلي يَتَنَزَّلُ في الدرجة الثانية بعد المنهج البرهاني، من حيث قوة الإقناع وبناء الحجة.

- لقد كان المنهج الجدلي المُمَيَّز الأكبر للمُداراة الكلامية الإسلامية في العقائد، أو ما يدعى بعلم الكلام، ولما خُصَّ بالكلام كلغة جَوارية، افتقر تاليا إلى المِباراة الجدلية بحكم طابعها العِنادي بين المتخاصمين، والحالة هذه وَرَثَتْ تطورا منقطع النظير لمنطق الكلام، أو الكلام المنطقي، المُهَنْدَس ابتداء على التسليم بدعاوى الفريقين المتخاصمين، وجدَلِ السَّؤَال والجواب، والتَّبَيُّ المنطقي للمسار الجدلي، فتتشكل بذلك فن المناظرة، والتي بلغ فيها المنهج الجدلي ذُرْوَتَه، وظهرت الأضلاع المنطقية بجلاء في معاملة.

** - المصادر والمراجع

- 1 - ابن النفيس(2015)، شرح الوريقات في المنطق، تح وت: أحمد فريد المزيدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1.
- 2 - ابن رشد(2003)، تهافت التهافت، تقديم وتعليق: صلاح الدين الهواري، بيروت، المكتبة العصرية.
- 3 - ابن رشد(د.ت) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تحقيق: محمد عمارة، القاهرة، دار المعارف، ط3.
- 4 - ابن سينا(1433)، الشفاء، المنطق ج 1، تحقيق: الأب قنواقي، مراجعة: ابراهيم مدكور، قم، إيران، مكتبة سماحة آية الله العظمى، ط2.
- 5 - أرسطو(1999)، النص الكامل لمنطق أرسطو، كتاب المقولات، تحقيق وتقديم: فريد جبر، مراجعة: جبرار جهامي ورفيق العجم، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط1.
- 6 - جبرار جهامي(1998)، موسوعة مصطلحات الفلسفة والمنطق، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط1.
- 7 - حمو النقاري(2016)، معجم مفاهيم علم الكلام المنهجية، بيروت، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، ط1.
- 8 - الزمخشري(2009)، تفسير الكشاف، تخريج وتعليق: خليل مأمون شيجا، بيروت، دار المعرفة، ط3.
- 9 - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني(2009)، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، بيروت، دار القلم، ط10.
- 10 - عبد الله بن حسين اليزدي(1433)، الحاشية على تهذيب المنطق، إيران، مؤسسة النشر الإسلامي، ط15.
- 11 - الغزالي: معيار العلم(1961) تحقيق: سليمان دنيا، مصر، دار المعارف، دط.
- 12 - الفارابي أبو نصر(1986)، المنطق، الجزء الثالث، كتاب الجدول، تحقيق وتقديم وتعليق: رفيق العجم، بيروت، دار المشرق، دط.
- 13 - الفارابي أبو نصر(1986)، المنطق، الجزء الثاني، كتاب القياس، تحقيق وتقديم وتعليق: رفيق العجم، بيروت، دار المشرق، دط.
- 14 - فلاح العابدي(2018)، لباب المنطق، بيروت، ومضات للترجمة والنشر، ط1.
- 15 - القاضي عبد الجبار(2012)، المغني، جزء خلق القرآن، تحقيق: محمد خضر نها، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1.
- 16 - محمد قاضي وآخ(1436)، معجم المصطلحات الكلامية، المجلد الثاني، إيران، مجمع البحوث الإسلامية، ط2.
- 17 - نيقولا ريدشر(2005)، تاريخ علم المنطق عند العرب، ترجمة وتعليق: محمد مهران، باريس، منشورات أسمار، دط.